مجلـــة بدايـــات
Email :bidayat@lagh-univ.dz Revue :Bidayate ISSN: 2676-198X
المجلد: الأول(01) / العدد: الرابع(04) / فيفري 2020/ ص ص: 55-69

التناسب الصوتي في الدعاء القرآني-دراسة صوتية -

Phonetic proportion in the Quranic supplication

Voice study

د. عبد العزيز أيت بها

مختبر الترجمة وتكامل المعارف، كلية لآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض المغرب

تاريخ الإرسال:2020/01/01	تاريخ القبول:2020/01/28	تاريخ النشر2020/02/24

ملخص البحث

ننطلق في هذه المقالة من تصور عام لفكرة نروم الكشف عن ملامحها، والإيضاح عن تجلياتها، نقصد فكرة الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم. لقد ذهب غير واحد من العلماء الدارسين لإعجاز القرآن الكريم إلى كونه معجزا بجملته[1]، ونتصور أن الإعجاز الصوتي داخل في هذه الجملة، بل هو مقوم جليل من مقوماتها، كما أن النظم الصوتي داخل في النظم القرآني الكلي، ولا شك أن النظم القرآني علا ذروة الفصاحة، فبز البلغاء وأعجزهم. ومستند هذا التصور هو كون إعجاز القرآن الكريم إعجازا بنيويا متعدد الأوجه، فلغة القرآن لغة معجزة في جميع مستوياتها، بدءا من المستوى الصوتي والصرفي، ومرورا بالمستوى التركيبي، وانتهاء بالمستوى الدلالي، بل يمكننا الذهاب بعيدا في القول، فنتشبث بكون الإعجاز القرآني منشأه من تضافر هذه المكونات وتعالقها، وتناغم هذه المستويات وتعانقها، تماما كما تلتقي الشعاب المتفرقة في قنة الوادي. وقد اخترنا أسلوب الدعاء لنبرز بعض مظاهر هذا الإعجاز، وإن كنا لا نشك في كون سر هذا الإعجاز ساريا في نظام القرآن كله على اختلاف أساليبه، وتعدد موضوعاته، وتفرّد أوجه مخاطباته، وعسى أن تكون لنا وقفات مع أساليب أخرى في غير هذه المناسبة.

وقد اقتضت الضرورة المنهجية أن توضع هذه المقالة في تمهيد ومباحث ثلاثة: خصصنا التمهيد لتحديد مفهوم الدعاء ودلالاته، وعرضنا في المبحث الأول لنماذج من الدعاء بالخير، وفي المبحث الثاني تناولنا نماذج من الدعاء بالشر، وفي المبحث الثالث وقفنا على بعض الملامح الصوتية في الدعاء القرآني بصفة عامة.

الكلمات المفتاحية: التناسب الصوتي، الدعاء، القرآن، دراسة.

Abstract:

In this article, we proceed from a general perception of the idea of Nroom to reveal its features and clarify its manifestations. We mean the idea of the audio miracle of the Holy Quran. Other than one of the scholars studying the miracle of the Noble Qur'an has gone on to be a miracle in its entirety (), and we imagine that the audio miracle is within this sentence, rather it is a great constituent of its constituents, just as the phonological systems are inside the entire Qur'anic systems, there is no doubt that the Qur'anic systems are at the apex of Eloquence The basis of this perception is that the miracle of the Noble Qur'an is a structural, miraculous, miraculous miracle. The language of the Qur'an is a miracle language at all levels, starting with the audio and morphological level, passing through the syntactic level, and ending with the semantic level. The components and their attachment, harmony and embrace these levels, just as they meet the scattered reefs in the valley canal. We chose the method of supplication to highlight some aspects of this miracle, although we do not doubt that the secret of this miracle is valid in the whole system of the Qur'an in all its different methods, the multiplicity of its topics, and the unique aspects of its conversations, and we may have stops with other methods on this occasion.

The methodological necessity required that this article be placed in a preliminary and three topics: We devoted the introduction to defining the concept of supplication and its implications, and we presented in the first topic samples of supplication with good, and in the second topic we dealt with models of supplication with evil, and in the third topic we stood on some of the audio features in the Quranic supplication as General.

Key words: phoneme, supplication, Quran, study.

تمهيد

يقول ابن منظور(ت. 711هـ) في "لسان العرب": "معنى الدعاء لله على ثلاثة أوجه: فضرب منها توحيده والثناء عليه، كقولك يا الله لا إله إلا أنت ... والضرب الثاني مسألة الله العفوَ والرحمة وما يقرب منه كقولك: اللهم اغفر لنا، والضرب الثالث مسألة الحظ من الدنيا كقولك: اللهم ارزقني مالا وولدا، وإنما سمي هذا جميعه دعاء لأن الإنسان يصدر في هذه الأشياء بقوله يا الله، (يا رب)، ... (يا رحمن) ودعا الرجل دعوا ودعاء : ناداه ..

قال أبو عدنان: كل شيء في الأرض إذا احتاج إلى شيء فقد دعا به، يقال للرجل إذا أخلقت ثيابه: قد دعت ثيابك، أي احتاجت إلى ان تلبس غيرها من الثياب."[2]

نستخلص من كلام ابن منظور، بالإضافة إلى تقسيم الدعاء إلى ثلاثة أضرب، ملمحين دلاليين (مهمين): الأول كون الجامع بين هذه الأضرب الثلاثة هو تصديرها بنداء الله تعالى: يا الله يا رحمن يا رب.. والثاني كون الدعاء عن حاجة فكل شيء احتاج إلى غيره فقد دعى به، وكلها أمور ينبني عليها الدعاء القرآني، وتؤثر فيه دلاليا وصوتيا.

ونظرا لقرب ما بين الدعاء والنداء، حاول القدماء العرب الفصل بينهما، جاء في "معجم الكليات" لأبي البقاء الكفوي (ت.1094هـ): " والدعاء لا يقال إلا إذا كان معه الاسم نحو: يا فلان، بخلاف النداء فإنه يقال فيه: يا وأيا من غير أن يضم إليه الاسم...

والدعاء للقريب والنداء للبعيد،...والداعي المضطرُّ فله الإجابة، والسائلُ المختارُ فله المثوبة."[3]

يظهر من كلام الكفوي أن الفرق بين الدعاء والنداء من وجهين: الأول مرجعه إلى وجود اسم المنادى في الدعاء وجوبا، بخلاف النداء الذي يجوز أن يسقط منه، والثاني كون النداء ـ عموما ـ للبعيد والدعاء للقريب.

وهاهنا أمر آخر نبه عليه ابن منظور وأكده الكفوي وهو التمييز بين الداعي والسائل، فالدعاء عن اضطرار وحاجة قاهرة، أما السؤال فليس كذلك.

وغير بعيد عن هذا المعنى، يذكر الفخر الرازي(ت.606هـ) في "مفاتيح الغيب"، قصة في سبب نزول قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾ [البقرة: 186]، مفادها أن أعرابيا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا قريبا.[4] فهاهنا يقترن الدعاء بالمناجاة، ويجمع بينهما قرب المنادى وحصول السماع منه على كل حال.

وقد وردت مجموعة من المعاني للفظ الدعاء في "المعجم الوسيط" هي خلاصة ما ذكر في المعاجم القديمة، فبالإضافة إلى المعاني السالفة؛ يفيد الدعاء معنى الإستعانة والرغبة والابتهال، وهو إما أن يكون بالخير أو بالشر، "يقال دعا الله رجا منه الخير، ودعى لفلان طلب له الخير، ودعا على فلان طلب له الشر، والدعاء ما يدعى به الله من القول"[5].

ويعتبر لفظ الدعاء في القرآن الكريم من الألفاظ التي تُحمل على معانٍ متعددة، وقد حصرها علماء الأشباه والنظائر في سبعة أوجه:

أحدها: القول؛ ومنه قوله تعالى في [الأعراف: 5]: ﴿**فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾، وفي [يونس:10]: ﴿**دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾.

والثاني: العبادة؛ ومنه قوله تعالى في [الأنعام:71]: ﴿**قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ ، وفي [يونس: 106]: ﴿**وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾.

الثالث: النداء؛ ومنه قوله تعالى في [بني إسرائيل/ الإسراء: 52]: ﴿**يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ وفي [الأنبياء:45]: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ**﴾.

الرابع: الاستعانة؛ ومنه قوله تعالى في [البقرة:23]: ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾، وفي [يونس:38]: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾.

الخامس: السؤال؛ ومنه قوله تعالى في [البقرة: 186]: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾، وفي [حم غافر: 60]: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾.

السادس: الاستفهام؛ ومنه قوله تعالى في [البقرة: 68]: ﴿**قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ**﴾، أي استفهم.

والسابع: العذاب؛ ومنه قوله تعالى في [المعارج: 17. 18]: ﴿**تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى**﴾ أي تعذب.(6)

ويدخل، من هذه الأقسام، ضمن مفهومنا للدعاء في هذه الدراسة، معنى النداء لأن الداعي يناجي أو ينادي ربه، ومعنى السؤال المقصود منه الطلب. لأن حقيقة الدعاء كما يقول الرازي: "استدعاء العبد ربه جلا جلاله العناية، واستمداده إياه المعونة".(7)

أما مصطلح الدعاء عند أصحاب صناعة البيان فهو أسلوب بلاغي ينضوي تحت مظلة الإنشاء الطلبي ، ويدرس في باب الخبر والإنشاء من أبواب المعاني، وإن كانت دراستهم مجرد إشارات خاطفة، يقول التهانوي (ت.؟): "بالضم وفتح العين وبالمد في عرف العلماء كلام إنشائي، دال على الطلب مع خضوع، ويسمى سؤالا أيضا، ... وما في العضد من أنه طلب الفعل مع التسفل والخضوع فقد أراد بالطلب الكلام الدال عليه.."(8)

وحينما نراجع كتب اللغة والبلاغة لا نجد للدعاء صيغة لغوية محددة يتحقق بها، بل نجده من الدلالات المجازية لأساليب أخرى كالأمر والنهي والنداء وغيرها، وفي هذا المعنى يقول تمام حسان: "الدعاء من الإنشاء الطلبي، لكن اللغة لم تفرد للدعاء نمطا خاصا يتم الدعاء به، وإنما جعلت الدعاء شركة بين طائفة من الأنماط التركيبية، ووضعت بيد المتكلم أن يختار للتعبير عن الدعاء أي أسلوب يشاء. فمن ذلك:

1. **الإثبات:** نحو: ﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾ [البقرة:10].
2. **النفي:** نحو ﴿**فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ**﴾ [البلد11].
3. **الأمر:** نحو: ﴿**وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ**﴾ [المؤمنون118].
4. **النهي:** نحو: ﴿**وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا**﴾ [نوح:26].
5. **التمني:** نحو: ﴿**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ [القصص 79].
6. **الترجي:** نحو: ﴿**وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ [القصص22].
7. **المصدر المنصوب:** ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ [البقرة 285].(9)

وإذا كان بعضهم يعد عدم استقلال أسلوب الدعاء بنمط خاص، أمرا سلبيا، فإن البعض الآخر يعتبر ذلك ميسما بلاغيا، وقيمة مضافة للأساليب التي يمكن أن تؤدى بصيغ مختلفة ومتنوعة، فالاختيار الأسلوبي لصيغة دون أخرى من الصيغ السالفة الذكر يكون ذا وظيفة بلاغية وإبلاغية: "فالذي يسعى إلى التأثير بالأسلوب في السامع أو القارئ يهمه أن يقلب العبارات المختلفة على المعنى الواحد فيجعل للمعنى الواحد أنماطا متعددة".(10)

وجملة الأمر أن الدعاء أسلوب لغوي بلاغي يتحقق بأنماط لغوية متعددة، ومن دلالاته الاستغاثة والاستعانة والنداء والسؤال، وهي كلها مواقف كلامية، تجيش نفس صاحبها بمشاعر الخضوع والابتهال، والخشوع والإقبال، والافتقار إلى المولى عز وجل، ولا شك أن مثل هذه الإشارات النفسية لا تحملها التراكيب وحدها، بل لا بد أن تآزرها الملامح الصوتية والأدائية المناسبة، لأن إرسالها هملا وغفلا دون أن تراعى فيها الخصائص الصوتية من قبيل النبر والتنغيم يفرغها من قوتها التأثيرية، بل قد يحيل دلالاتها عن المعنى المقصود والتأثير المنشود.

من هذا المنطلق، نفرق بين ضربين من الدعاء في القرآن الكريم، بغض النظر عن الذي صدر عنه هذا الدعاء، الضرب الأول يكون القصد من ورائه الدعاء بالخير للنفس أو للغير، والضرب الثاني عكسه، وهو ما كان دعاء على الغير بالشر، وسنقارب

هذين الضربين من خلال جملة من الأسئلة كالآتي: متى تكون أصوات الدعاء القرآني وألفاظه عذبة رشيقة ومتى تكون عكس ذلك؟ كيف يسهم المد المقطعي في تمكين دلالات أدعية القرآن؟ ما هو أثر النبر في أسلوب الدعاء؟ وكيف يمنح التنغيم للدعاء خصوصيته الصوتية؟.

المبحث الأول: الدعاء بالخير في القرآن

يعتبر الدعاء بالخير النوع الأكثر والغالب على أدعية القرآن الكريم، ولهذا السبب سنقتصر على أنموذجين، نسعى من خلالهما إلى الكشف عن الملامح الصوتية الكبرى التي تحكم أسلوب الدعاء بالخير في القرآن الكريم، والآليات الصوتية التي يتحقق بها.

- **الأنموذج الأول** هو قوله تعالى في آخر سورة البقرة [285.286] ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (286)**﴾.

تتضح من خلال هذا الأنموذج هيمنة الألفاظ الرقيقة الرنانة، والكلمات العذبة الطنانة، التي تملأ النفس روعة وخشوعا، وقد أشار القدماء إلى أن الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى ألفاظ جزلة وأخرى رقيقة، وأن من فصاحة التركيب المطابقة، وهي مراعاة الملاءمة بين جرس الألفاظ ومقصد الكلام، إذ إن لكل منهما موضعا يحسن استعماله فيه، فمن مقام يقتضي ألفاظا جزلة متينة، ومن مقام آخر يقتضي ألفاظا رقيقة رشيقة. "فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف، وأشباه ذلك. وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام البعاد، وفي استجلاب المودات، وملاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك.."[11]

ونحن نجد ألفاظ القرآن التي تكون عند ذكر الحساب والعذاب والميزان والصراط، وعند ذكر الموت ومفارقة الدنيا وما يشبه ذلك أمتن الألفاظ وأجزلها، أما الألفاظ الرقيقة فتكون عند ذكر الرحمة والرأفة والمغفرة والملاطفات في خطاب الأنبياء والرسل، والتائبين من العباد. يقول أحمد أبو زيد: "وأما الآيات التي ترد في مقامات الترغيب والتسلية والتلطف فإن الرضى والمحبة الذين يغمران المقام تنعكس آثاره على الألفاظ والعبارات فتجعلها، رقيقة رخية الإيقاع(...) ويكثر هذا اللون من الخطاب الرقيق في مقام الدعاء ومناجاة الأنبياء والصالحين لله تعالى."[12]

والجدير بالملاحظة أن الدعاء القرآني قد يكون بألفاظ تجري كأنها الماء عذوبة، وتسيل كأنها النسيم رقة وسلاسة، وهذا هو الضرب الأول الذي نحن بصدده، وقد يكون بألفاظ قوية تقرع الآذان، وتهز الجنان، وهو الضرب الثاني كما سيبدو لنا من أمثلته.

وحينما نتأمل في هذا الأنموذج من الضرب الأول يتضح لنا هذا المعنى، فهو من الأدعية الرقيقة الحواشي، اللذيذة في المسموع، وقد علق عليه سيد قطب بقوله: "هو دعاء يصور حال المؤمنين مع ربهم، وإدراكهم لضعفهم وعجزهم، وحاجتهم إلى رحمته وعفوه، وإلى مدده وعونه، وإلصاق ظهورهم إلى ركنه، والتجائهم إلى كنفه...كل أولئك في نغمة وادعة واجفة تصور بإيقاعاتها وجيب القلب ورفرفة الروح."[13]

وما نذهب إليه في هذا الصدد ينخرط مع ما رسمه الأستاذ يحيى عَطِيف من تقسيم هذا الدعاء إلى أسلوبين، هما: أسلوب النهي وأسلوب الأمر. يقول: "وتأمل جمال الترتيب في تكرار الدعاء بالنهي أولا المصدر بنداء ربنا، وتكرار الدعاء بالأمر الدعائي ثانيا: "واعف عنا واغفر لنا وارحمنا" (...) وسلامة هذه الجمل ورشاقتها وعذوبتها وما توحيه من لهفة العبد على التوبة والرحمة والرجوع إلى ربه لا تخفى على صاحب الذوق السليم."[14] وتكرار هذه القوالب الصوتية يضفي على الدعاء إيقاعا صوتيا وتوازيا نغميا، ويجعله متناسق الأجزاء، متشابه الأطراف.

ومن بين الملامح الصوتية التي سجلها الدارسون في هذا الدعاء تكرار لفظ ربنا بحذف حرف النداء، فالحذف يدل على "شعور الداعي بقربه من ربه، وفي هذا التكرار البليغ المضاف إلى الداعين إلحاح يقتضيه مقام الدعاء والتضرع واللجوء والابتهال إلى الله سبحانه وتعالى."[15]

وبالإضافة إلى تكرار هذا اللفظ نتبين نسبة التكرار العالية لمجموعة من الأصوات التي تعرف في الصوتيات بالأصوات الترنمية التطريبية، وهي النون والميم واللام، ولا يخفى ما تتميز به هذه الأصوات من خصائص صوتية وموسيقية تتمثل في الوضوح السمعي والغنة، كما أنها تشبه الصوائت في الصفاء والوضوح السمعي، وفي بنية أحزمتهما الصوتية، وهذا ما يجعلها من الأصوات الرقيقة العذبة والمستحسنة.

وعندما ننتقل إلى مستوى أعلى في التحليل الصوتي نقف على ظاهرة صوتية نحسها بارزة في أسلوب الدعاء القرآني، حتى يمكن عدها من بين مقوماته، تلك هي ظاهرة كثافة أصوات المد، وتتصف أصوات المد عند علماء الأصوات بصفتين مائزتين:

الأولى: حرية مرور الهواء.

الثانية: كونها تملك قوة إسماع عالية جدا تفوق قوة إسماع الصوامت بكثير.[16]

ونحن نلاحظ في هذا النموذج 28 مدا صوتيا ، منها 23، بالألف، والألف أوضح الصوائت الطويلة وأشدها انفتاحا، وفي هذا المد ما فيه من الترنم وتطويل النفَس وإشباعه، وإظهار الخشوع والتضرع ، إضافة إلى امتزاجه بالنشيج المتصاعد من أعماق النفس التي أتعبها الحمل الثقيل، وترجو التخفف منه، فهي تتبرأ مما صدر منها حال الخطأ والسهو والنسيان، وتطلب العفو والرحمة والغفران.

وإن قوة الإسماع التي يتصف بها المد، ترتبط بظاهرتين تطريزيتين لهما إسهام كبير في الدراسة الأسلوبية الصوتية، هما النبر والتنغيم، فالمقطع الممدود في الكلمة هو المقطع الذي يقع عليه النبر من باب الأولى،[17] ويعد الملمح الإيقاعي من الملامح الأسلوبية التي يؤدي فيها النبر دورا مهما، فنحن نرصد موسيقى اللغة من خلال المسافات، المتناسبة أو المتساوية، التي توجد بين المقاطع المنبورة.[18]

أما التنغيم أو موسيقى الكلام على حد تعبير إبراهيم أنيس، فهو من أدوات التلوين الموسيقي والتناسب الصوتي الدلالي في الكلام، يقول الشيخ الرئيس ابن سينا: " فإن للنغم مناسبة ما مع الانفعالات والأخلاق، فإن الغضب تنبعث منه نغمة بحال، والخوف تنبعث منه نغمة بحال أخرى، وانفعال ثالث تنبعث منه نغمة بحال ثالثة، فيشبه أن يكون الثقل والجهر يتبع الفخامة، والحاد المخافت فئة تتبع ضعف النفس."[19]

فإذا استحضرنا صورة المؤمن ونفسيته وهو يرفع أكف الضراعة إلى الله، يرجو رحمته ويخاف عذابه، سهل علينا أن ندرك طبيعة النبرات والنغمات التي سيحملها هذا الدعاء: بين الرجاء والخوف تقَطّعُ نفسه، وتسيل على الخدود مدامعه، وأمكننا بذلك تأكيد ما أشار إليه الشيخ الرئيس ابن سينا، من كون النغمة الحادة والمخافتة تتبع ضعف النفس، وهو ما يتجلى في هذا الدعاء من افتقار العبد إلى ربه، وتدلله بين يديه خشوعا وخضوعا.

الأنموذج الثاني: قوله تعالى في أول سورة مريم [9.1]: ﴿**كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9)** ﴾.

في هذا الدعاء نستبين جملة من الملامح الصوتية التي ترتقي به إلى أقصى درجات البلاغة والتأثير، وأول ذلك عذوبة أصواته وسلاسة ألفاظه، وانسيابها على أسلات الألسنة، فهي تجري على اللسان كما يجري الدهان. أضف إلى هذا موسيقى الفواصل وتناسقها، خاصة بهذين الصوتين: الياء باعتبارها من حروف اللين والألف الممدودة الشبيهة بألف الترنم، يقول صبحي الصالح: "إن البيان لا يرقى هنا إلى وصف العذوبة التي تنتهي في فاصلة كل آية بيائها المشددة وتنوينها المحول عند الوقف ألفا لينة كأنها في الشعر ألف الإطلاق: فهذه الألف اللينة الرخية المنسابة تناسقت بها "شقيا . وليا . رضيا" مع عبد الله زكريا ينادي ربه نداء خفيا!!."[20]

وقد مر بنا في تحليل الأنموذج السالف الدورُ الذي يقوم به المد في تعميق الإحساس بالمعاني التي يحملها التركيب واستغراقها وتأكيدها، ومن خلال تواؤم المدود الصوتية مع باقي الأصوات نستشعر السحر الصوتي لهذا الدعاء، فإن " من سحر القرآن أن النغم الصاعد فيه خلال الدعاء يثير بكل لفظة صورة، وينشئ في كل لحن مرتعا للخيال فسيحا: فنتصور مثلا، ونحن نرتل دعاء زكرياء، شيخا جليلا مهيبا، على كل لفظة ينطق بها مسحة من رهبة وشعاع من نور، ونتمثل هذا الشيخ الجليل على وقاره، متأجج العاطفة، متهدج الصوت ، طويل النفَس، ما تبرح أصداء كلماته تتجاوب في أعماق قلوبنا شديدة التأثير، بل إن زكرياء في دعائه ليحرك القلوب المتحجرة بتعبيره الصادق عن حزنه وأساه خوفا من انقطاع عقبه، وهو قائم في المحراب لا يني ينادي اسم "ربه" نداء خفيا، ويكرر اسم "ربه" بكرة وعشيا.."[21]

وإن خفض الصوت، كما قرر العلماء، من آداب الدعاء وأسراره وحِكمه، فهو أبلغ في التضرع والخشوع، يقول الزمخشري في تفسير النداء الخفي في هذه الآيات: "راعى سنة الله في إخفاء دعوته، لأن الجهر والإخفاء عند الله سيان، فكان الإخفاء أولى، لأنه أبعد من الرياء وأدخل في الإخلاص."[22]

وقد لاحظ سيد قطب وجود موسيقى كامنة في تركيب هذا الدعاء خاصة الآية الثالثة منه، "فلو حاولت مثلا أن تغير فقط وضع كلمة "مني" فتجعلها سابقة لكلمة العظم: (قال ربي إني وهن مني العظم)، لأحسست بما يشبه الكسر في وزن الشعر، ذلك أنها تتوازن مع "إني" في صدر الفقرة هكذا: "قال رب إني" "وهن العظم مني".

على أن هناك نوعا من الموسيقى الداخلية يلحظ ولا يشرح وهو كامن في نسيج اللفظة المفردة، وتركيب الجملة الواحدة. وهو يدرك بحاسة خفية وهبة لدنية.

وهكذا تتبدى تلك الموسيقى الداخلية في بناء التعبير القرآني، موزونة بميزان شديد الحساسية، تميله أخف الحركات والاهتزازات."[23]

إذا أردنا أن نعبر عن كلام سيد قطب بمصطلحات صوتية، قلنا: إن هذه العبارة تتميز بتوزيع جمالي رائع في المقاطع المنبورة مع مقابلاتها غير المنبورة، بالمقارنة مع قولنا "وهن عظمي، أو وهن مني العظم"[24]:

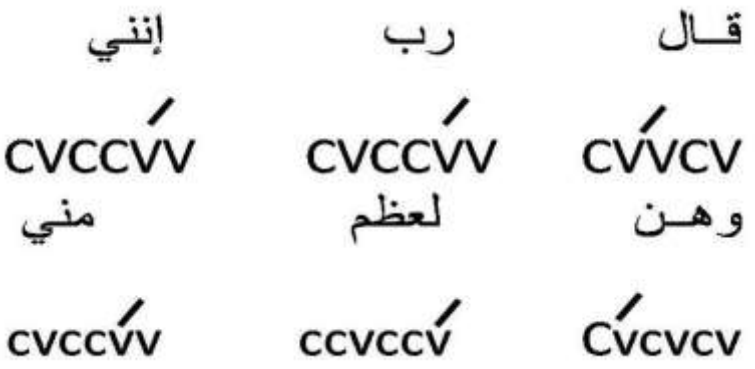

إننا نلاحظ التوازن الإيقاعي في حسن تقسيم العبارة إلى قسمين متوازنين يتفقان . تقريبا . في عدد الوحدات الصرفية التي يشتملان عليها. كما نتبين عنصرا صوتيا يسهم في إغناء إيقاع هذه الآية وهو اتحاد البنية المقطعية والصائتية في آخر الكلام، إني / مني، وعندما نتعمق في تحليل المقاطع نتبين سمة الانفتاح الطاغية على كل مقاطع هذه الجملة، بالإضافة إلى كون نواته نواة مركبة طويلة، وكل هذا الانفتاح، كما تقرر في الأسلوبية الصوتية، يعكس انفتاح النفس وتطلعها إلى اشراقات مستقبلية، إنها تعبر عن تطلع نبي الله زكرياء إلى ذلك الولد البار الذي سيخلفه، ويرثه ويرث من آل يعقوب، فيكون الأمل في الحياة واستمرار العقب.

وأما في ما يخص التنغيم فإن ما قيل عن الدعاء في آخر سورة البقرة يقال هنا، لأننا بصدد ضرب واحد من الدعاء هو الدعاء لطلب الخير، فلا عجب أن يكونا بنغمة واحدة هي نغمة الخشوع والخضوع لله بصوت خافت خفي. فهذا الدعاء بطبيعته " ضرب من النشيد الصاعد إلى الله، ولا يحلو وقعه في نفس الضارع المبتهل إلا أن تكون ألفاظه منتقاة (...) وإذا تذكرنا أن ابتهال الصالحين كثير في القرآن رغبا أو رهبا، طمعا أو خوفا، استعجالا لخير أو دفعا لشر، أدركنا سرا من أسرار التنغيم ينبعث من كل مقطع من كتاب الله."[25]

وجملة الأمر في هذا الضرب من الدعاء أن المعطيات الصوتية سواء منها ما يرتبط بالمستوى المقطعي أو التطريزي تتآزر وتتعالق فيما بينها لكي تمنح هذا النشيد قوته، وتعمق دلالته، فيكون ذلك بما فيه من صدق الرغبة، وإخلاص النية أدعى للإجابة، والله أعلم.

المبحث الثاني : الدعاء بالشر في القرآن

لم نجد في القرآن الكريم لهذا النوع من الدعاء إلا أمثلة قليلة، وبعضها يخرج مخرج السخرية، كما في قوله تعالى على لسان المشركين: ﴿**وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الأنفال 32]، ولهذه العلة اخترنا نموذجين اثنين، وحرصنا أن يكون فيهما الدعاء صادقا، وهما: دعاء نوح على قومه في سورة نوح في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا**

(27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (28)﴾ [28 . 30] ودعاء موسى عليه السلام على قوم في سورة يونس في قوله تعالى: **﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾** [88].

إن أول ما يتضح للدارس إزاء هذا اللون من الدعاء، إذا ما قورن بالأدعية السالفة، وغيرها مما هو من شاكلتها، الاختلاف الكبير في طبيعة الأصوات المترددة والمتكررة، وكذلك الألفاظ التي تركب منها هذا الدعاء، ثم مقاطع الفواصل.

فالأصوات المترددة هناك أصوات رنينية ذات خصائص صوتية موسيقية، مثل الميم والنون بالإضافة إلى أصوات اللين: الألف والواو والياء، يقول الأستاذ عبد الحميد زاهيد: "وهذه الخصائص الصوتية لحروف المد جعلتها تمتد مع النغم بسهولة، ولما شاركت اللام والميم والنون وحروف المد في امتداد الصوت ووضوحه، صارت معتمدة في الألحان."[26] ولما كانت خصائص هذه الأصوات رنانة، فقد جاءت منها الألفاظ رقيقة رشيقة. وأما الأمر هنا فعلى النقيض من ذلك، فالأصوات المهيمنة على التشكيل الصوتي في دعاء نوح عليه السلام هي الذال/الدال، والباء والراء، وهي أصوات ذات خصائص صوتية تشي بقوتها، فالذال صوت احتكاكي مجهور يتم إنتاجه عبر تضييق في المجرى الصوتي، وذلك بوضع أسلة اللسان بين الأسنان. وأما الدال والباء فهما صوتان انفجاريان ينتجان عن طريق قفل المجرى الصوتي ثم تسريحه فجأة، وأما الراء فهو صوت لثوي وهو الصوت التكراري الوحيد من أصوات العربية يتم إنتاجه عن طريق قفل المجرى الصوتي مع فتحه لمرات متتالية.[27]

لكل هذه الخصائص الصوتية، جاء هذا الدعاء معبرا عن غضب نوح عليه السلام على قومه، ويأسه من دخولهم في رسالته، وانقطاع رجائه من أي خير يأتي منهم، ومن ثم دعا عليهم، يقول صبحي الصالح: "فما على نوح، وقد أيس منهم إلا أن يتملكه الغيظ ويمتلئ فوه بكلمات الدعاء الثائرة الغضبى تنطلق في الوجوه مديدة مجلجلة، بموسيقاها الرهيبة، وإيقاعها العنيف، وما أظنك تتخيل الجبال إلا دكا، والسماء إلا متجهمة عابسة، والأرض إلا مهتزة مزلزلة، والبحار إلا هائجة ثائرة، حين دعا نوح على قومه بالهلاك والتبار فقال: **﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27)﴾**[28].

وأما التناسب الصوتي الدلالي في فواصل هذا الدعاء فلا ينكره إلا ذو طبع سقيم، "فالفواصل التي تنتهي بها جل الآيات السابقة، بمقاطعها التي تتألف من صوت متحرك هو الراء، والألف التي بعدها . تسهم بجرسها في الإيحاء بتلك المعاناة، وذلك الجهد الثقيل والصبر الجميل والزمن الطويل الذي قضاه نوح عليه السلام في دعوة قومه إلى النور والهدى، فلم يزدادوا إلا إعراضا وضلالا واستكبارا، ولما يئس منهم دعا عليهم."[29]

ونسجل إضافة إلى ما سلف، جملة من الملامح الصوتية التي لها وظيفة جمالية في تحقيق التناسب الصوتي في هذا الدعاء، من ذلك تكرير بعض الأصوات والألفاظ، مثل "ولا تزد الظالمين إلا ضلالا/ ولا تزد الظالمين إلا تبارا، تذر/ تذرهم، ومن ذلك أيضا ما نلحظه من التوازن الصرفي/ أو اتحاد البنية الصائتية بين الفعلين المنفيين: "لا تذر/ و/لا تزد".

وما يزيد انبهارنا بالاختيار الصوتي في أسلوب الدعاء بحسب الموضوع، الدعاء بالخير أو الشر، أن نتذوق هذه الجملة التي وردت فاصلا بين شقين من دعاء نوح عليه السلام على قومه، والتي يسأل الله فيها أن يغفر له ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا**﴾ فنرى من جمال الأصوات وعذوبتها، وانسياب المقاطع وسلاستها، واستغراق المدود ولينها، بالمقارنة مع ما سبقه ولحقه، ما يسحر العقول والألباب، ويعجز الفحول من الشعراء والكتاب.

والأمر نفسه بالنسبة لدعاء موسى عليه السلام على قومه، فقد وظف لفظين من الألفاظ المجلجلة بأصواتها (ربنا **اطمس** على أموالهم **واشدد** على قلوبهم)، فمن خصائص هذه الأصوات – الطاء والسين والشين والدال – نستشعر تلك القوة التي يعبر عنها السياق، وذلك الغضب الذي يتغلغل في صدر موسى على قومه، وقد يئس من أن يكون فيهم خيرٌ، فالسين والشين صوتان احتكاكيان، ينتج الأول منهما برفع مقدم اللسان نحو الأسنان واللثة، وأما الثاني فيتم إنتاجه عن طريق رفع مقدم اللسان في اتجاه منطقة الغار بصورة تسمح بحدوث احتكاك زائد، وأما الطاء فهو من الأصوات الشديدة الانفجارية التي يتم فيها حصرٌ كليٌّ للهواء الصاعد من الرئتين، ثم إطلاقه فجأة، وكذلك الدال، وتتفق ثلاثة من هذه الأصوات في صفة معدودة من الصفات الصوتية القوية وهي صفة الهمس، "وعند إنتاج الصوت المهموس ترتفع كمية الهواء المتدفق le flux aerien، فينتج عنه ضغط تحت مزماري قوي، وعلى العكس من ذلك ففي حالة الجهر يقل الضغط تحت مزماري."[30] يقول سيد قطب: "اتجه موسى إلى ربه، يدعوه أن يدمر هذه الأموال، وأن يشد على قلوب أهلها فلا يؤمنوا إلا حيث لا ينفعهم إيمان."[31] ، ويقول الزمخشري: "وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضا مكررا وردد عليهم النصائح والمواعظ زمانا طويلا(...)ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفرا، وعلى الإنذار إلا استكبارا(...) اشتد غضبه عليهم، وأفرط مَقتُه وكراهتُه لحالهم، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره.."[32]

وقد ذكر الزمخشري أن الفضل الرقاشي قرأ "واطمُس" بضم الميم،[33] وهذه القراءة تتضمن ملمحا صوتيا بلاغيا حيث تنشأ بين الفعلين "اطمس" بضم الميم، و"اشدد" موازنة صرفية، حيث يتفقان في البنية الصائتية. كما أن هذين الفعلين في صيغة الأمر يتسمان بإيقاع سريع عبر مقاطع متوسطة ومغلقة، وهذا الإيقاع السريع تترجمه الظواهر التطريزية . النبر والتنغيم . بانفعال موسى عليه السلام وضجره من قومه، ورغبته الملحة في هلاك ينزل بهم، فيبيدهم على وجه السرعة.

المبحث الثالث: ملامح صوتية في أسلوب الدعاء القرآني

لقد سجل بعض الدارسين جملة من الملامح الصوتية في بعض أدعية القرآن التي لم ندرسها هنا، وتتميما للفائدة، ودفعا للتوهم بأن ما ذكرناه إنما هو ملامح خاصة بهذه النماذج التي اخترناها دون غيرها، ندرج آراءهم في هذا المبحث.

1. جمال المدود والفواصل في سورة الفاتحة

لقد تنبه الأستاذ يحي عطيف إلى الوظيفة الدلالية والإيقاعية التي تؤديها المدود والفواصل في الدعاء الوارد في سورة الفاتحة، ومدى تناسبها مع جو الدعاء والخشوع، فقال: "ومن بلاغة هذه السورة وجمالها عذوبة الجرس وحلاوة الإيقاع، وتناسبه مع موقف الدعاء، ويتمثل ذلك في جمال المدود والحركات ونظم الفواصل ودقة اختيارها، وأدائها لوظيفتها الدلالية والإيقاعية الصوتية خير أداء، فمن حيث المعنى جاءت الفاصلة في كل آيات هذه السورة الكريمة متمكنة ومطمئنة وغير نافرة ولا قلقة...

وأما من حيث الإيقاع أو الجرس فبكل فاصلة يكتمل التناسق الصوتي الإيقاعي للآية(...) وهذه المدود جميعها مع الفواصل تكسب التنغيم هدوءا وامتدادا يصور جو الدعاء ويناسب موقف الخشوع والتضرع والمناجاة."[34]

2. التقديم والتأخير مراعاة للتناسب الصوتي في الدعاء

ونجد هذا الملمح في دعاء إبراهيم عليه السلام في سورة إبراهيم ﴿**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ**﴾ [40 . 41] حيث تقدمت الأرض على السماء على غير ما جرت به عادة التعبير القرآني، وقد لاحظ الأستاذ عطيف أن تأخير لفظ السماء إنما كان لما فيها من المد، على خلاف الأرض، فإذا وقف عليها القارئ، طال نفَسُه، بما يعبر عن تضرعه وافتقاره وحاجته، يقول في ذلك: "ومما يلفت النظر هنا تقديم الأرض على السماء خلافا لما هو غالب في القرآن من تقديم السماء على الأرض، ولعل ذلك لغرض اقتضاه التناسق الصوتي، بين لفظة السماء وموقف الدعاء، فلهذا قدمت الأرض وأخرت السماء، وجعلت فاصلة ختمت بها الآية، لما في السماء من مد يتناسب وموقف الدعاء الخاشع المطمئن، ولو قدمت السماء وأخرت الأرض وجعلت فاصلة لما تم ذلك التناسق الصوتي العذب."[35]

3. الحذف في فواصل الدعاء القرآني

وردت ظاهرة الحذف في القرآن الكريم لوظائف بلاغية مختلفة، وفي سياقات متعددة منها الدعاء، لكن الوظيفة الصوتية والإيقاعية للحذف لا تكون بارزة إلا في مقاطع الآي وفواصلها، ونحن نلاحظ مع بعض الدارسين أنه "يكثر في فواصل الدعاء حذف ياء الإضافة "ياء المتكلم" من ذلك ما جاء في الآيات التالية: في قوله تعالى: ﴿**وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (98) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ**﴾ [المؤمنون 98- 99]، وقوله: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ**﴾ [القصص33- 44]

وغير ذلك من الآيات، فالحذف فيما سبق جاء مع مراعاته للتناسب الصوتي معبرا عن أسرار بلاغية، وبالرجوع إلى الآيات السابقة نجدها . عدا الآية الأولى . جاءت في باب الخوف والرهبة، خوفا من التكذيب أو القتل أو حضور أو حلول الأجل دون التزود للآخرة بالعمل الصالح. وحالة الخوف تلك تجعل اللسان ينطق بالكلمة سريعة مقتطعا جزءا منها، وغالبا ما يكون من الحروف الأخيرة في الكلمة.[36]

4. التأكيد ب"أن" لخفتها

وهذا الملمح مما لاحظه الدارسون أيضا، "وذلك لأن الخطاب . في الدعاء . موجه إلى الله عز وجل، وقد جاء التأكيد فيما سبق من الآيات لأغراض نفسية يبثها الداعي مؤكدة حسب قوتها في نفسه، وقد كثر التأكيد في الحقائق المتعلقة بالله عز وجل، لأن الداعي يشعر بقوتها في نفسه، فيظهرها مؤكدة كما أحسها.

ونلحظ كذلك أن التوكيد بأداة التوكيد "إن" ولعل ذلك يرجع إلى شهرتها في هذا الباب أو لأنها أخف وأسرع وقعا."[37]

نتائج البحث:

وصفوة القول إنه إذا كان أسلوب الدعاء في اللغة –على غرار الأساليب الإنشائية الطلبية كالنداء والاستفهام والأمر والنهي– يقوم على مجموعة من الخصائص الصوتية، المقطعية والتطريزية، كالنبر والتنغيم، دونها تفقد هذه الأساليب خصوصيتها الأسلوبية . فإن القرآن الكريم وظف هذه الخصائص الصوتية في أسلوب الدعاء توظيفا بلاغيا وأسلوبيا. بل بلغ بها قمة البلاغة والفصاحة، وهذا الجانب من البلاغة القرآنية لم يحظ بعد بالعناية الكافية من قبل الدارسين، فهو مايزال بحاجة إلى دراسات علمية وأكاديمية عميقة، كما يعد بآفاق فسيحة للبحث الرصين.

الهوامش:

[1] ومن هؤلاء الآمدي الذي ينظر إلى الإعجاز القرآني نظرة كلية شاملة تتجاوز النظرة الضيقة التي وسمت أنظار كثيرين غيره. انظر: الحمصي نعيم ، "فكرة إعجاز القرآن من البعثة النبوية إلى عصرنا الحاضر". ص 109.

[2] ابن منظور: لسان العرب، مادة "دعا" (1385/2).

[3] أبو البقاء الكفوي(ت.1094ه): الكليات: ، ص 446. 447.

[4] الفخر الرازي: التفسير الكبير، مج 3، ج5/ 85.

[5] جماعة من المؤلفين: المعجم الوسيط، مج1: 309، 310.

[6] ابن الجوزي أبو الفرج (ت.597ه): نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: العلمية ، ص: 123، 124.

[7] الرازي: التفسير الكبير، مرجع سابق، مج 3، ج88/5.

[8] التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، 1/ 785.

[9] تمام حسان: البيان في روائع القرآن، ج1/ 357.

[10] نفسه : 356.

[11] ابن الأثير: المثل السائر، 1/ 185، 186. وانظر كذلك: أحمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن: دراسة في النظم المعنوي والصوتي، ، ص: 307.

[12] التناسب البياني في القرآن: مرجع سابق، ص 308، 309.

[13] سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 1، ج3/ص345.

[14] يحي بن محمد عطيف: "من بلاغة بعض آيات الدعاء في القرآن الكريم": ، ص 722، 723.

[15] من بلاغة بعض آيات الدعاء في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص: 722. 733، وانظر كذلك: بهية بنت حامد اللحياني، الدعاء في القرآن الكريم: أساليبه ومقاصده وأسراره ص: 260- 261.

[16] غالب فاضل المطلبي: في الأصوات اللغوية : دراسة في أصوات المد العربية، ص 45.

[17] عبد الحميد زاهيد: نبر الكلمة وقواعده في اللغة العربية: دراسة صوتية، ص: 44 . 50.

[18] عبد العزيز أيت بها: الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم: مقاربة صوتية، ص: 129.

[19] ابن سينا: الخطابة 197، 198. نقلا عن: عبد الحميد زاهيد: الصوت في علم الموسيقى العربية: : دراسة صوتية،. ، ص 85.

[20] صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، ص 338.

[21] نفسه: ص 337.

[22] الزمخشري(ت.538ه): الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج3/ ص3.

[23] سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم، ص 106 .107.

24 محمد السيد سليمان العبد: من صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم:، ص 72- 73.

[25] مباحث في علوم القرآن: مرجع سابق، ص 337.

26 عبد الحميد زاهيد: علم الأصوات وعلم الموسيقى: دراسة صوتية مقارنة، ص 110.

27 لمزيد من التفصيل في الصفات الأكوستيكية لهذه الصوامت انظر على سبيل المثال: أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص 320 وما بعدها.

28 مباحث في علوم القرآن: مرجع سابق: ص399. ويقول يحي بن محمد عطيف: "ولا يفوت المتذوق لبلاغة هذا النص الكريم أن يشير إلى قوة الجرس الصوتي وامتداده وتناسقه مع جو الدعاء الثائر للحق على الباطل مجسدا في أولئك الظالمين الضالين المضلين." من بلاغة بعض آيا ت الدعاء في القرآن"، ص: 739.

29 من بلاغة بعض آيا ت الدعاء في القرآن"، مرجع سابق ، ص: 739.

30 عبد الحميد زاهيد: الصوت في الدراسات النقدية والبلاغية التراثية والحديثة، عرض ونقد، ص 57/56.

31 في ظلال القرآن: مرجع سابق، المجلد الثالث، ج11/ 1816.

32 الكشاف: مرجع سابق، ج2/ 402/401.

33 نفسه :ص 42.

34 من بلاغة بعض آيات الدعاء في القرآن"، مرجع سابق ، ص 720/ 721.

35 نفسه: ص 730.

36 الدعاء في القرآن الكريم: أساليبه ومقاصده وأسراره: مرجع سابق، ص 280/ 281.

37 نفسه: ص121.